العرب
الجمعة 2020/07/24
السنة 43 العدد 11771

إيران وفيتنام... والانتصار على أميركا

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

ليس الموضوع موضوع الانتصار على أميركا أو الانتقام منها. الموضوع ما الذي تفعله بالانتصار على أميركا وأين يصرف ذلك؟ يظلّ مثل فيتنام المثل الأهمّ على أنّ الانتصار على أميركا لا يغني عن التعاطي مع الواقع، أي مع القوّة الاقتصادية الأكبر في العالم التي تمتلك في الوقت ذاته التكنولوجيا الأكثر تقدّما، فضلا عن الشركات المتعددة الجنسية القادرة على الاستثمار وخلق فرص عمل في مختلف أنحاء العالم في إطار اقتصاد السوق. اقتصاد السوق بحسناته الكثيرة وسيئاته المعروفة طبعا.

في نهاية المطاف لا يمكن الانتصار على أميركا، يمكن الاستفادة من أميركا عن طريق التحالف معها في حربها على العراق ولكن في المدى الطويل لا بد من أميركا مهما طال السفر

هذا ما أدركته فيتنام بعد إذلالها للقوّة العسكرية الأميركية في سبعينات القرن الماضي... وهذا ما لم تدركه إيران التي استطاعت توجيه ضربات مؤلمة إلى الأميركيين لأسباب لا تزال غير معروفة، علما أن الإدارة الأميركية التي كانت قائمة في مرحلة انتصار الثورة الشعبية على نظام الشاه (إدارة جيمي كارتر) لم تكن معادية للمطالبين بالتغيير الجذري في إيران.

على العكس من ذلك، حصل تخلّ أميركي عن الشاه في العامين 1978 و1979. كذلك، لعبت الإدارة الأميركية في مرحلة ما بعد رحيل الشاه دورا في تحذير إيران من احتمال التعرّض لهجوم عراقي إبان حكم صدّام حسين. حصل ذلك عن طريق بوب إيمز المسؤول عن شبكة وكالة الاستخبارات المركزية (سي.آي.إي) في الشرق الأوسط في أثناء زيارة له لطهران. هذا ما يكشفه كتاب ذو مضمون موثّق عنوانه "الجاسوس الطيب" لكاي بيرد. خُصّص الكتاب لبوب إيمز وعلاقته السرّية بمنظمة التحرير الفلسطينية عن طريق علي سلامة (أبوحسن) الذي اغتالته إسرائيل في بيروت بسبب نجاحه في إقامة مثل هذه العلاقة مطلع العام 1979.

من سخريات القدر أن بوب إيمز قتل مع آخرين من كبار المسؤولين في الـ"سي. آي.إي" لدى تفجير السفارة الأميركية في بيروت في نيسان – إبريل من العام 1983 بواسطة انتحاري. لم تكن إيران بعيدة عن تلك العملية التي تلتها عملية تفجير قاعدة "المارينز" قرب مطار بيروت في 23 تشرين الأوّل – أكتوبر من تلك السنة. ألحقت عملية التفجير هذه، التي تورطت فيها إيران أيضا، أكبر خسارة بشرية بالجيش الأميركي منذ حرب فيتنام.

لماذا هذا الإصرار الإيراني على الاستمرار في مواجهة الولايات المتحدة والسعي في الوقت ذاته إلى الاستفادة منها إلى أبعد حدود كما حصل في العراق، وحتّى في أفغانستان، على سبيل المثال وليس الحصر؟ لا جواب واضحا باستثناء أن "الجمهورية الإسلامية" التي أسّسها آية الله الخميني لم تستطع الانصراف إلى معالجة المشاكل الداخلية لإيران والإيرانيين. على العكس من ذلك. زادتهم فقرا وبؤسا وحوّلت إيران إلى قوّة إقليمية عبر ميليشيات مذهبية. ليس لدى هذه الميليشيات، بدءا بـ"حزب الله" في لبنان وانتهاء بـ"أنصار الله"، أي الحوثيين في اليمن، ما تقدّمه على أي صعيد أو أيّ مجال كان، لا في السياسة ولا في الاقتصاد ولا في التعليم ولا في الثقافة...

من أجل تبسيط الأمور، لا يزال النظام القائم في إيران يعتقد أن عليه رفع شعار "الموت لأميركا" و"الموت لإسرائيل" كي يؤكّد وجود عدوّ خارجي يغطي بواسطته سياسته الفاشلة داخل إيران. لا همّ لدى هذا النظام الذي لم يستطع إيجاد شرعية شعبية عميقة له سوى حماية نفسه ومتابعة الهرب إلى خارج إيران من أجل تبرير القمع الداخلي وسيطرة "الحرس الثوري" على جزء كبير وأساسي من الاقتصاد.

في نهاية المطاف، لا يمكن الانتصار على أميركا. يمكن الاستفادة من أميركا عن طريق التحالف معها في حربها على العراق كما حصل في العام 2003. ولكن في المدى الطويل، لا بدّ من أميركا مهما طال السفر. لولا أميركا لما كانت إيران في العراق ولما استطاعت الانتقام من العراق والعراقيين بسبب حرب الأعوام الثماني، وهي حرب عبثية كان يفترض في العراق تفادي خوضها لأسباب كثيرة تحتاج إلى مقال خاص.

في الحرب مع أميركا، انتهت إيران إلى ما انتهت إليه. أي إلى دولة محاصرة لا تجد من تبيعه نفطها. اعترف وزير النفط الإيراني بذلك أخيرا. إضافة إلى ذلك، ضاقت الخيارات الإيرانية إلى درجة توقيع اتفاق لمدّة 25 عاما مع الصين. يكشف الاتفاق إلى أي درجة تحتاج إيران إلى اتفاق مع أي قوّة اقتصادية، بأي ثمن كان، من أجل بقاء النظام حيّا يرزق.

في أواخر نيسان – إبريل 1975، كانت هزيمة أميركا في فيتنام. لا تزال صورة طائرة الهليكوبتر العسكرية الأميركية الأخيرة وهي تغادر سطح السفارة الأميركية في سابغون ماثلة في الأذهان. بعد سنوات قليلة، انصرف فيها الفيتناميون إلى معالجة مشاكلهم الداخلية، صارت فيتنام دولة طبيعية. عادت الشركات الأميركية، بما في ذلك "بيغ بورغر" و"ماكدونالد" إلى فيتنام وصار الرؤساء الأميركيون يزورون هانوي من دون أيّ عقد. زار هانوي جورج بوش الابن وبيل كلينتون وباراك أوباما ودونالد ترامب. العشرات من الشركات الكبيرة في العالم تصنع ملابسها في فيتنام حيث اليد العاملة الرخيصة. هذا غيض من فيض الاستثمارات الأجنبية في فيتنام التي فتحت أبوابها للعالم... شرقا وغربا من دون تمييز وبما يخدم مصالحها.

كلمة السرّ في كلّ ذلك كلمتان. الكلمتان هما "دولة طبيعية". أن تكون دولة طبيعية أو لا تكون. قبلت فيتنام أن تكون دولة طبيعية تعرف حجمها ولا تريد تغيير العالم، فيما تصرّ إيران على أن تكون قوة إقليمية تسيطر على جزء من العالم، أي على الخليج العربي والشرق الأوسط وما هو أبعد من ذلك بكثير. حسنا، إذا كانت لا تريد أن تتعلّم من تجربة الاتحاد السوفياتي التي هزمها الاقتصاد، لماذا لا تتعلّم من فيتنام؟ ليس هناك من يريد تغيير النظام في فيتنام. تصالحت فيتنام مع نفسها ومع شعبها الذي رفضت بيعه الأوهام. متى تتصالح إيران مع شعبها ومع محيطها وتتوقف عن بيع الشعارات التي لا تأخذ إلى أي مكان باستثناء الفقر والبؤس...

انتصرت فيتنام على أميركا. تعرف لماذا انتصرت. في المقابل ليس معروفا ما الذي تريده إيران من أي انتصار مستحيل يمكن أن تحقّقه على القوة العظمى الوحيدة في العالم!

قطر في لعبة عض الأصابع بين القاهرة وأنقرة

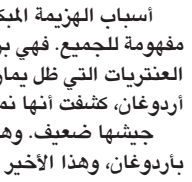

علي الصراف
كاتب عراقي

القول إن أمير قطر الشيخ تميم بن حمد لا يُصغي إلا لمستشاري الإرهاب، قد لا يكون صحيحا. فهو ربما كان يُصغي لمنطق العقل والحكمة، ولو في بعض الأحيان.

إعلان إبراهيم قالن، المتحدث باسم الرئاسة التركية، بأن أنقرة لا تريد مواجهة مع مصر، وإعلان مولود جاويش أوغلو، وزير الخارجية التركي، أن الحل سياسي في ليبيا، بعد أيام فقط من قوله إن وقف إطلاق النار لا يفيد حكومة طرابلس، وامتناع تركيا عن الرد على الضربة الجوية لقاعدة الوطية، كل ذلك، يمكنه أن يوحي بأن ممول الحفلة التركية في ليبيا، ربما قال لمأجوره في أنقرة ألا يذهب إلى خوض مواجهة عسكرية مع مصر، لأن قطر سوف تدفع الثمن باهظا، في الحالتين، إذا هُزمت تركيا وإذا انتصرت.

إذا كان ذلك استدراكا حقيقيا، فلا بد أن تكون له بقية. فالمرء لا يخطو مع المنطق نصف خطوة من دون أن يتمها. المنطق لا يستقيم إلا إذا تم.

في لعبة عض الأصابع، يخسر من يصرخ أولا. وقد خسرت تركيا اللعبة حتى من قبل أن تبدأ. وهي بإعلانها المسبق أنها لا تريد مواجهة عسكرية مع مصر، تكون قد أعلنت خروجها من اللعبة. وعلى هذا الأساس، فلا حاجة للجرجرة ولا للمماطلات.

أسباب الهزيمة المبكرة لتركيا مفهومة للجميع. فهي برغم كل العنتريات التي ظل يمارسها رجب طيب أردوغان، كشفت أنها نمر من ورق.

جيشها ضعيف. وهو لا يثق بأردوغان، وهذا الأخير لا يثق به أيضا، ولهذا السبب فإنه يستعين دونه بمرتزقة. وسياساتها هشة. وموقف أردوغان الدولي هزيل، وليس لديه صديق واحد في أوروبا. ومثلما يضحك عليه دونالد ترامب، فإن فلاديمير بوتين يسخر منه أيضا. واقتصاد تركيا على حافة هاوية. وهناك عوامل ضعف أخرى لا تقل سوءا.

بقي، أن بلدا في وضع كهذا، لا يحق له أن يفرض شروطا، ولا أن يماطل في مطالب. وخير له، بما أنه قبل الهزيمة المبكرة، أن يمتثل لكل المطالب التي تحددها له القاهرة.

القاعدة المعروفة تقول: من لا يجرؤ على الحرب، لا يكسب السلام. على الأقل، لا يحق له أن يفرض شروطا.

أي مماطلة، سوف تزيد الوضع سوءا، لأنها سوف تكشف عن ضعف أشد. وفي المقابل، فإن أي محاولة للتصعيد في محاولة لرفع سقف المطالب، قد تنتهي بتحويل الهزيمة إلى استسلام مذل.

عندما تتراجع، فخير لك أن تتراجع بالقليل من المذلة، من أن تُجبر عليه. ففي ذلك الوقت سوف تجر خلفك ذيول الخيبة فوق المذلة.

ماذا يعني هذا بالنسبة لقطر؟

الدوحة، كما هو ظاهر، حاولت أن تستقوي بتركيا. وحوّلتها إلى وكيل يقوم بالنيابة عنها بدعم جماعات الإرهاب.

اللعبة تبدو الآن خاسرة، سواء من جهة الاستقواء بنمر من ورق، أو من جهة دعم المشروع الإخواني عن طريق قوة هي ليست بقوة.

الأحلام الأردوغانية سرعان ما سوف تبدأ بالتهاوي. وسوف يتعين على أردوغان أن يتعقلن في العلاقات مع أوروبا، وأن يتخلى عن تطلعاته المتوسطية.

فإذا تهاوى الغطاء الذي ظلت تتستر به الدوحة لعدة سنوات، فالسؤال هو: ما قيمة المحافظة عليه؟ وإذا ما بدا أن المشروع الإخواني بات بلا ستر ولا سند، فما هو مبرر الاستمرار في الدفاع عنه؟

السند نفسه كان هزيلا ومؤقتا من الأساس. فأردوغان ليس في وضع يسمح له بالبقاء في السلطة لوقت طويل. ولا حزبه قادر على أن يسترد المكانة التي بدأ بها. وهناك من الدوافع، والخطايا، الكثير الذي يبرر للأتراك أن يطووا صفحته إلى الأبد. على الأقل لأن انتهاكات نظامه طالت مئات الآلاف من البشر. وقاد البلاد من كارثة إلى أخرى حتى لم يبق لأردوغان من مخرج سوى أن يذهب بمشكلاته إلى الخارج. وعندما فعل، عاد منها بالفشل.

لم يكن من الصحيح، بالنسبة للدوحة، أن تضع بيضة واحدة في سلة أردوغان. فما بالك وقد وضعت كل بيضات دعم المشروع الإخواني في تلك السلة؟

نحن نعرف، عن طريق الخبرة والتجربة والدليل، أن هذا البيض فاسد. فهل هناك ما يبرر أن نشم الرائحة عندما يعود ليتهشم؟

المشروع الإخواني نفسه، وليس أردوغان، لم يعد هناك ما يبرر الدفاع عنه، ولا الإنفاق عليه.

والأمر لا يتصل بصلاته مع منظمات الإرهاب، ولا بانكشاف خدعة الاعتدال المزعوم، ولا حتى بعزلته في الشارع، بل لأنه لم يسفر إلا عن تجارب فاشلة، ولم ينتج إلا أنظمة إفلاس وفشل، وظل يقدم الدليل تلو الآخر على أنه قوة ظلام وتخلف عقلي، وانحطاط ثقافي وصعلكة في السياسة والإدارة والسلطة.

الركض وراء مطية كهذه، لا يمكنه، بحسب التجربة على الأقل، أن يثمر أي نتيجة يمكن البناء فوقها. إلا الخراب. وهذا مما لا تزعم قطر أنها تقصده، رغم أننا لا نرى سواه.

منطق العقل والحكمة يقول إنك لست بحاجة إلى أن ترى الهزيمة على أرض الواقع لكي تعرف أنها قادمة. تكفي بعض المؤشرات، لعلها توفر لك الفرصة لانسحاب "مشرف".

والشيء الوحيد المشرف، في كل هذه المحنة، هو أن يركب الشيخ تميم طائرته ليقوم بجولة تحمله إلى الرياض وأبوظبي والمنامة والقاهرة، ليرأب الصدع من أوله. وليتنزع من الصدور كل ما ظل يغلي فيها بسبب ما تحملته هذه العواصم من أذى ومظالم.

هناك سوف يمكنه أن يجد أي تبرير يشاء لأخطاء الماضي. وكل تبرير سيكون قابلا للاحتواء أو القبول إذا ما أعلنت قطر التخلي كليا عن سياسات التخريب، وأن تتبنى سياسات بديلة تقدمها كقوة بناء وتعاون وتنمية.

تركيا خسرت اللعبة حتى من قبل أن تبدأ وهي بإعلانها المسبق أنها لا تريد مواجهة عسكرية مع مصر أعلنت خروجها من اللعبة، وعلى هذا الأساس لا حاجة للجرجرة ولا للمماطلات

لعب دور إيجابي يظل أمرا ممكنا، واستعادة المكانة اللائقة، ممكنة أيضا بالاستدراك الصحيح، التام والشامل.

والحال، فكلما جاء ذلك أسرع، كلما كانت الآلام أقل والعائدات أفضل.

لقد ركبت قطر، في السباق من أجل المكانة، حصانا خاسرا. ولئن أنفقت العشرات من المليارات لدعم مشروع فاشل، فقد حان الوقت، لكي تضع للخسارة حدا فاصلا ونهائيا.

وقل الحمد لله أن مواجهة بين مصر وتركيا لم تقع. ولا الحرب اندلعت، لأن العاقبة كانت ستكون كارثية على الدوحة، بمستوى لا يمكن حتى للخيال أن يتصوره.

وما هذه إلا فرصة يوفرها القدر. إنها الفرصة الوحيدة التي يحسن بالمخطئ أن يمسك بها بيديه وأسنانه لكي يتجاوز بها خطاياه.

انظر إليها إذا ضاعت، وسترى حجم الفرق بين الهزيمة المنكرة والاستدراك المبكر. على الأقل لكي لا تقرع طبول الفشل في أذن من آثر ألا يُصغي لمنطق العقل والحكمة.